مظاهرات باريس: في استقبال برجنيف الرئيس السوفيتي الجديد!

عاطف الغمري

بعد أن تجمعت كل السلطات في يدى برجنيف، وانتهت «التريوكا» - أى الثلاثة خيول التى كانت تجر عربة الحكم والسياسة فى روسيا - بودجورنى وبريجنيف وكوسيجين - قام برجنيف بزيارته لفرنسا.. واستقبلته المظاهرات فى باريس احتجاجا على إهدار حقوق الإنسان المتفق عليها فى ميثاق هلسنكى وهاجمت قوات الأمن الفرنسية هؤلاء المتظاهرين بالقنابل المسيلة للدموع..

ولكن زيارة برجنيف تمت فى جو من البرود والتحفظ الشديد - فروسيا لن تنسى أن فرنسا ساعدت زائير ضد النيوعيين!

فى السياسة لا تكون متابعة ما يجرى على خشبة المسرح، لاعطاء الابعاد الكاملة لأى حدث سياسى، ولكن التجول وراء كواليس السياسة، يتيح لك أن ترى ما يراد حظر ظهوره على خشبة المسرح.

هكذا أحسست وأنا ألاحظ ذلك الحرص الواضح فى أحاديث المسئولين على وزن عباراتهم. حتى لا تعطى انطباعا يعكر جو الزيارة.

•• وكان ذلك أكثر وضوحا، وأنا أناقش معهم مشكلة أثارت الغبار على جو العلاقات بين البلدين، وخلقت حالة من الفتور بينهما. يستطيع أى مراقب أن يلمسها واستمرت كذلك حتى قبيل وصول بريجنيف إلى باريس..

وهذه المشكلة، هى المساعدة التى قدمتها فرنسا لزائير أثناء المعارك التى دارت على أرضها، واتخاذ الاتحاد السوفيتى موقفا متعارضا مع الموقف الفرنسى.

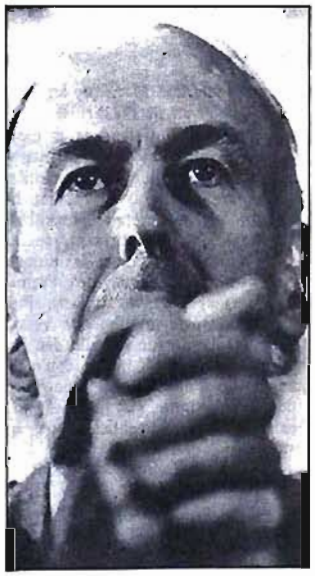

• الرئيس الفرنسى ديستان

وقبل أن نتجول فى كواليس السياسة الفرنسية بعيدا عن كلمات المسئولين التى تعطى بحساب، يصبح الوقوف أولا عند هذه المشكلة، شيئا يستحق الاهتمام، باعتبارها قضية هامة، تدخل فى صلب العلاقات السوفيتية الفرنسية فى مراحلها الراهنة.

•• ووجهة النظر الفرنسية كما قيلت لى على لسان المختصين بالشئون الافريقية، تقول:

إن مافعلناه فى زائير أننا قمنا بعملية محدودة، كنا خلالها بمثابة وسيلة نقل، حيث وفرنا نوعا من الطائرات ذات خصائص غير متوافرة لدى حكومتين صديقتين هما المغرب وزائير.

وما فعلته فرنسا أنها قدمت عشر طائرات طراز تراتسال، لتنقل معدات عسكرية الى كولويزى فى زائير، لتكون تحت تصرف القوات المغربية فى لحظة وصولها الى كولويزى.

•• والطائرة ترانسال، هى طائرة واطئة ومستديرة، ويسهل أن تنقل عربات جيب، ولوريات ثم تنزل منها إلى الأرض مباشرة. وهذا النوع من الطائرات غير متوافر لدى المغرب التى اشتركت قواتها فى المعارك الى جانب حكومة زائير، أو لدى زائير نفسها.

•• ثم يضيف المسئول الفرنسى إيضاحات أخرى هى:

أن المبادرة الفرنسية تمت لوقف عملية وجهت ضد سيادة أراضى دولة أفريقية.

وأن فرنسا تراعى وهى تتخذ مبادرتها، عدم التورط فى أى قتال فى دولة افريقية، ثم إن هدف فرنسا الرئيسى، إبعاد القارة عن أن تكون ميدانا لصراع قوى خارجية، وأن تتم تسوية أى منازعات افريقية على يد الافريقيين أنفسهم.

ويتوقف حديث المسئول الفرنسى، عند هذه الحدود، يحرص على ألا يتجاوزها، حتى إن عباراته فى التعليق على هجوم وكالة تاس على المبادرة الفرنسية، يلاحظ فيها الحرص على اعتبار هذا الهجوم، أمرا لا يستوجب أى غضب.

• البحث عما وراء الكواليس •

وعندما أخرج من حدود الحوار مع المسئولين، لأتجول فى كواليس السياسة الفرنسية، فى لقاءات مع المختصين بهذه الشئون، والذين يتخلصون من قيود العمل الرسمى والتزاماته. أسمع منهم أن المبادرة الفرنسية تتعدى حدود ما قيل، وأنها مدفوعة باعتبارات استراتيجية لا يغيب عن حسابها أن ما يجرى فى زائير جزء من لعبة قوى كبرى تتحمل أخطار نقل الصراع الدولى الى افريقيا. وإن تفجر الصراع فى القارة يهدد بالتالى الوفاق الدولى فى أوروبا، باعتبارها سلسلة مترابطة الحلقات.

•• وفى كواليس السياسة فى باريس، أسمع هنا:

إن متحدثا رسميا أبلغ وكالة الأنباء الفرنسية فى يوم اقلاع الطائرات العشر إلى زائير أن الوقت قد حان لكى يتصرف الغرب ضد النشاط الذى يوجهه السوفيت والكوبيون فى افريقيا. ثم صدر أمر عاجل إلى الوكالة بحذف هذا التصريح.

لكن أى مسئول تسأله عن هذه الواقعة، ينفى أى علم له بها.

وأيا كان التفاوت بين ما تشهده على خشبة المسرح (الرسمى)، وبين ما تسمعه وراء الكواليس (بعيدا عن الرسميات)، فإن الملاحظ أن الموقفين الفرنسى والسوفيتى تجاه

زائير كانا متعارضين تماما، وأن المبادرة الفرنسية فى افريقيا، قد خلقت حالة من التوتر بين البلدين، .. وهى حالة سبقت وصول بريجنيف إلى باريس.

لكن الملاحظ أيضا أن الجانبين الفرنسى والسوفيتى كانا حريصين على أن تغلف الحرارة جو الزيارة وأن يزيلوا مظاهر هذا التوتر. ومع بقاء اختلاف وجهات النظر بينهما تجاه هذه المسألة، وتجاه عدد من القضايا الدولية الأخرى فإن كلا من موسكو وباريس، كان يهمها أن يحل جو من الحرارة على محادثات ديستان وبريجنيف.

وكان وراء هذا الاهتمام، عدد من العوامل يضعها كل جانب فى اعتباره، وهو يجرى عملية موازنة سياسية لعلاقته مع الجانب الآخر.

● الاقتصاد.. هدف استراتيجى ●

وأول هذه العوامل - اقتصادى. وأهمية هذا العامل، أن الاقتصاد يشكل أحد المحركات الرئيسية لأى سلوك استراتيجى فى عالم العلاقات الدولية، ومثلما يشكل أحد دوافع بريجنيف الرئيسية فى تبنيه سياسة الوفاق مع الغرب، فإنه بالنسبة لفرنسا يمثل أحد أسس السياسة الخارجية كما أرساها ديجول، عندما دخل مجالات السياسة من باب الاقتصاد، منذ تولى حكم فرنسا عام ١٩٥٨، فى بحثه عن المتطلبات الحقيقية للمصالح القومية الفرنسية، وفى وقت كان الاقتصاد الفرنسى والانتاج الفرنسى، يواجهان فيه منافسة حادة فى أوروبا الغربية، خاصة من جانب المانيا الغربية

وبالنسبة للسوفيت، فإنهم لا يخفون حاجتهم للتقدم العلمى الفرنسى والخبرات التكنولوجية الفرنسية، لتساهم فى دفع حركة الانتاج السوفيتى فى مجالات الزراعة والصناعة، واستثمار المواد الطبيعية، والتنقيب عنها.

والسوفييت مهتمون ببيع نوعيات عديدة من منتجاتهم المصنعة إلى فرنسا وحاليا يبيعون لفرنسا بترولا خاما (٣ ملايين طن حتى هذه الفترة من عام ١٩٧٧) وغازا طبيعيا (بليونى متر مكعب هذا العام، سترتفع إلى أربعة بلايين متر مكعب عام ١٩٨٠)، بالاضافة إلى معدات صناعية ثقيلة.

●● والفرنسيون يهمهم ايجاد مجالات جديدة منعشة لاستثماراتهم فى الخارج، ولنشاط خبراتهم التكنولوجية. ويمثل السوق السوفيتى مجالا مغريا أمامهم.

كما أن الانتاج الفرنسى يبحث عن مزيد من الاسواق لصادراته، وكانت صادرات فرنسا للاتحاد السوفيتى قد بلغت فى العام الماضى، ٢٫٣٧ مليار فرنك.

وبالنسبة للبلدين وصل حجم التبادل التجارى فى عام ١٩٧٦ إلى عشرة مليارات فرنك، وهناك اتفاق بين البلدين على

● مجلس السوفيت الأعلى يصفق لاختيار ليونيد بريجنيف رئيسا للدولة أيضا.. وبذلك يكون بريجنيف سكرتيرا عاما للحزب الشيوعى ورئيسا للدولة فجمع كل السلطات والصلاحيات فى يديه.. وهى سلطات لم ينلها أحد من قبله منذ ستالين..

مضاعفة حجمه ثلاث مرات خلال الفترة من ١٩٧٤ إلى ١٩٧٩.

●● وكما أن العامل الاقتصادى يجد اهتماما مشتركا من الطرفين، فإن لكل طرف اعتباراته السياسية، التى تدخل فى تشكيل مواقفه تجاه الآخر.

هناك مثلا.. أن بريجنيف يتولى سلطاته كرئيس للدولة بعد إقصاء بودجورنى ومعه - فى مرحلة تتسع فيها حدود مسئولياته - أن يؤكد نجاح السياسة التى ارتبطت باسمه داخل بلاده، وهى سياسة التهدئة، أو الانفتاح، أو الوفاق مع الغرب.

وبريجنيف - وهو يضع ذلك فى حساباته - يأخذ فى اعتباره، فى الوقت نفسه أن فرنسا تعتبر من أقصر الطرق فى هذا الاتجاه.

ففرنسا - وهى دولة غربية - هى أيضا دولة لها سياساتها الخارجية المستقلة، ومبادراتها الذاتية، ومفهومها الخاص - منذ أيام ديجول - عن دعم الوفاق بين أوروبا والاتحاد السوفيتى.

وفرنسا أيضا - وهى دولة تنتمى للتحالف الغربى مع الولايات المتحدة - يمكن أن تكون طرفا للتقريب بين وجهات النظر التى أخذت تتقارب بصورة واضحة بين موسكو وواشنطن - منذ تولى الرئيس كارتر الحكم - حول كثير من قواعد الوفاق الدولى، وفى مقدمتها ربط الوفاق، بمسألة حقوق الانسان، وهو ربط يزعج السوفييت.

ويضاف إلى ذلك اهتمام السوفييت بوقوف فرنسا إلى جانبهم، فى عدم تحول اثارة مسألة حقوق الإنسان إلى نوع من المحاكمة للنظام الاجتماعى السوفيتى فى المؤتمرات الدولية، مثل مؤتمر بلجراد التمهيدى الذى بدأ هذا الشهر لمواجهة ما تم حتى الآن تنفيذا لميثاق هلسنكى الموقع عام ١٩٧٥، وللإعداد لمؤتمر مشابه موسع يعقد فى بلجراد فى الخريف القادم.

إن الزيارة بالنسبة للرئيس الفرنسى ديستان تمثل تأكيدا للخط السياسى الخارجى المتميز.. وهو خط يلقى شعبية واسعة داخل فرنسا، وتتفق على تأييده مختلف الاتجاهات السياسية. ثم إنه فى الوقت الذى تجرى فيه عمليات تخفيف الخلافات بين حزبى الأغلبية الحاكمة الرئيسية (الحزب الديجولى وحزب ديستان الجمهورى)، فإن هذه السياسة تمثل دفعة لهذا التقارب، باعتبار أن السياسة الخارجية المستقلة، تمثل فى نظر الديجوليين، تراثا قوميا.

كانت هذه الاعتبارات اقتصادية وسياسية - تشكل معا، الأسباب التى تحرك الجانبين الفرنسى والسوفيتى، فى اتجاه إزالة الفتور الذى ساد العلاقات بينهما فى الفترة الأخيرة - وليس ازالة الخلافات - حتى يتهيأ الجو المناسب لزيارة بريجنيف، لباريس، ومباحثاته مع ديستان. فعلا تمت الزيارة فى جو خلا من الفتور، لكنه لم يتخلص من استمرار الخلافات فى وجهات النظر حول عدد من القضايا الدولية.

وهذه مسألة محسوبة مقدما، بحكم انتهاج كل من الدولتين نظاما اجتماعيا مختلفا تماما عن الآخر، وبحكم انتماء كل منهما إلى تجمع سياسى وعسكرى يقف على النقيض من الآخر. وهذه مسألة - انعكست - فى تأخير الجلسة الأخيرة من محادثات ديستان وبريجنيف لمدة ساعة كاملة، بسبب الخلافات حول تعاون فرنسا مع حلف الاطلنطى فى حالة صدام بين الشرق والغرب فى أوروبا واصرار فرنسا على موقفها من حقوق الانسان فى أوروبا الشرقية.

● وتبقى هذه الخلافات حول الكثير من القضايا والأوضاع ظاهرة مستمرة، وسلما بها من الجانبين، لكن هذا لا يمنع من القول بأن الزيارة حققت أهدافا بعيدة المدى، تشغل اهتمام الفرنسيين والسوفيت، وتتمثل فى تنشيط حركة التعاون الاقتصادى والتبادل التجارى، وأهدافا قصيرة المدى، تعكسها اعتبارات سياسية قائمة فى الوقت الحاضر لدى كل طرف... لكن ذلك كله - فى النهاية - يجرى وفق استراتيجية محددة لكل جانب، لها نظرتها وحساباتها الخاصة للأمور. ●